هكذا هي الحياة !!

في يوم كغيره من الأيام استيقظ من نومه على رنين المنبه القديم الذي تحشرج صوت حركة عقاربه، فبدا كأنه طنين حشرة لا تهدأ، فوجدها تشير إلى الساعة الثامنة صباحاً، نزل من بيته متثاقل الخطوات، يتأمل تلك الوجوه التي يعرفها جيداً، ثم مشى قليلاً إلى أن وصل إلى مقصده ..هناك مكان قديمٍ في منطقة مغمورة اعتلاه يافطة خشبية قديمة كتب عليها بلون أزرق بالي، صيدلية، مكان كئيب رُصت على رفوفه الأدوية التي تناثر عليها التراب، وقاربت صلاحيتها على الانتهاء، ويعلو صوت المذياع الذي لا يتحول مؤشره عن إذاعة القرآن الكريم، يدخل في صمت وسط طُرْقَة ضيقة تنتهي إلى المكتب البسيط، يجلس على الكرسي الذي ظهرت من خلال ثقوبه الكبيرة بطانته الداخلية، وكأنما تأبى الجلوس في هذا المكان الكئيب معلنةً التمرد والعصيان، ثم أخرج من جيب قميصه العلوي لفافتين من التبغ الرديء النوع، أمسك واحدةً وألقى بالأخرى على المكتب المتواضع الذي تناثرت عليه أنصاف الأشرطة وبعض من العملات المعدنية الصغيرة، يعلوه لوحة معنية قديمة فقدت توازنها؛ فمالت إلى اليمين قليلاً كتب عليها بأحرف أفقدها الدهر لمعتها "الصبر مفتاح الفرج"، وبجوارها شهادة التخرج النهائية معلناً قدرته على مزاولة المهنة.

أخرج الولاعة من جيبه، وبعد عدة محاولات فاشلة في إشعال لفافة التبغ، انطلقت نصف شعلة نجحت في إحراق اللفافة وإصابتها إصابات بالغة، فأمسكها بيده المرتعشة، وهو الذي خط رأسه الشيب، وأورثه الزمان الكثير من الخطوط في وجهه معلنةً انتهاء حصته من الكولاجين الذي كان يحصل عليه في شبابه، فأصبح وجه مليئا بالتجاعيد وخطوط الزمن، ثم أخذ نفساً طويلاً، وقد انغمرت خدوده للداخل، وامتلأ فمه بالدخان، مالبث أن فتح فتحة صغيرة يخرج منها الدخان في بطء على غرار أبطال الأفلام متناثراً في أجواء المكان الكئيب ليضفي عليه ما يمكن إضافته من الحزن، ومرت حياته أمامه كشريط من أفلام السينما الكلاسيكية القديمة.

استدعى ذكريات الطفولة والشباب، حيث براءة الأطفال، والحياة الخالية من المشاكل، وانتقل من مشهد إلى آخر، فها هو يجادل الجميع محاولاً إثبات صحة اختياره في دخوله تلك الكلية، مروراً بأيام المذاكرة والإمتحانات والقلق والتوتر والامتحانات والنجاح والرسوب، إلى أن وجد نفسه خارج ذلك المكان بعدما أعطوه ورقة إطلاق سراحه إلى الواقع المرير، حيث تنقلب الموازين ويرى الوجه القاسي للحياة بعد

قضاء فترة تأهيله..! عرف أن ما تم تلقينه له شيء والواقع شيء آخر تماماً، كشرت له الحياة عن أنيابها، صرخت في وجهه صرخة أزالت عنها الأقنعة، وظهر وجهها القبيح.

يتذكر تلك المشاهد وعيناه تحمل حزناً ثقيلاً، ولم يقطع سكون تلك اللحظة إلا وقع خطوات طفل صغير حاملاً في يده ورقة، متلفتاً يميناً ويساراً في حذر .. يتسائل في نفسه إذا ما كان قد أخطأ المكان أم أن الذي يراه هو مكان الحصول على الدواء !وضع الورقة في صمت أمامه، نظر إليه نظرة بمزيج من الحزن والقهر، بوجه شاحب ألقى نظرة عابرة إلى الورقة، توجه إلى أحد الرفوف وأخرج علبةً في سرعة ومهارة تعلمها منذ سنين، حكها في أطراف ثوبه لتتخلص من التراب العالق بها الذي أبى أن يفارقها رغم محاولاته، ثم وضعها أمامه، فترك الصغير النقود وأخذ الدواء وفر هارباً يتمتم بكلمات غير واضحة ظاناً أنه قد أفلت من شبح خرج لتوه من المقابر !ثم عاد إلى مكانه، وغرق في صمته المطبق،ثم أخذ نفساً آخر من لفافة التبغ، وعلى جدار من الذكريات رُصت عليه صور من حياته وضعتها الأيام في مكانها، فرصتها رصاً محكماً دقيقاً، يتذكر كيف انتهى به الحال إلى ذلك المكان .. وكيف تلاشت أحلامه الوردية، وكيف فشل في مسايرة الواقع، واختار نمط حياته الروتينية بيده، ذكريات مؤلمة، أبى عقله أن يتحمل كلفة استعادة الذكريات مرة أخرى، وفرت دمعة هاربة من عينه، متخذة إحدى الخطوط التي حفرت في وجهه الشاحب كمساراً لها إلى أن انتهت رحلتها سريعاً، فسقطت حتى ارتطمت بالأرض وتناثرت إلى العدد، ..فإمتدت يديه إلى خلف نظارته ومسح أثر تلك الدمعة سريعاً ورفع قدميه إلى المكتب القابع منذ سنين أمامه ، وقال في شجن :" هكذا هي الحياة ! "